الاتصال بالثقافة الغربية

لا تفتأ المعارف البشرية تتثاقف وتتلاقح ، ولا يزال الإنسان مذ أوجده اللّه تعالى في هذا الكون يتصل بأخيه الإنسان ، فيأخذ عنه ، ويتعلّم منه ، ويتعرف ما عنده ؛ فالتعارف بين البشر من سنن الله الكبرى في الكون : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ .

وكلما أوغلت البشرية في العمر استحكمت وسائل الاتصال بينها ، وراحت المسافات الشاسعة التي تباعدها تدنو وتقترب ، فازداد الأخذ والعطاء ، وقوي التأثر والتأثير . واليوم يبدو الاتصال بين شرق الكرة الأرضية وغربها أسهل من الاتصال القديم بين بلدتين متجاورتين ، فالمسافات تطوى ، والعالم يبدو كأنه قرية صغيرة ، وتستطيع بضغطة على زر جهاز علمي من هذه الأجهزة العجيبة التي أبدعها العقل الإنساني أن تعرف ما يجري في أقصى الدنيا .

ولكن استفحال عوامل التأثر والتأثير بين شعوب الأرض ، واستحكام حلقات التواصل فيها ، لم يذيبا الفوارق بينها ، ولم يجعلاها أمة واحدة : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة : ١٤٨] ، ولم يحوِّلا شعباً عن أن يحتفظ بملامحه الخاصة من الثقافة والفكر والعادات والتقاليد وأشكال لا حصر لها من شؤون الحياة ، بل إن التمسك باللون المحلي ليبدو الشعار الحضاري الذي ترفعه كل أمة ، وهو الذي يحمل للإنسان ـ في كل زمان ومكان ـ متعة الترحل والسياحة ، ويدفعه إلى المغامرة الدائمة بحثاً عن نغمة متميِّزة يجدها عند الآخرين .

وفي الأدب يبحث النقاد عادة عن البيئة المحلية التي يصوِّرها هذا النص أو ذاك ، وعن ملامح البطل الخاصة ، وشخصيته القومية ، ويتساءلون عن مدى الصدق في تصوير هذا كله .

ولقد اتصل أدبنا العربي منذ العصر الأموي والعباسي بضروب شتى من آداب الأمم الأخرى وثقافاتها ، كالفارسية ، والهندية ، والبيزنطية ، واليونانية ، وعرف

هوميروس وأرسطو وغيرهما ، ونجمت منذ أواخر العصر الأموي حركة ترجمة نشيطة لضروب مختلفة من المعارف والعلوم ، ولم يغمض الفكر العربي الإسلامي عينيه عنها ، أو يغلّق أبوابه دونها ، بل قبس منها أقباساً ، واستروح منها نسمات ، ولكن ذلك كله كان يتم على عين البصيرة .

كان ـ وهو يطلع على ما يقع إليه من أضراب الفكر الغربي ـ يحاكمها إلى معايير عقيدته ، ويجعلها شاهداً عليها . لم يقف منها قط موقف استخذاء أو دونيّة ، أو موقف مبهور زائغ البصر . كان يصحّح ويعدّل ، يضيف ويحذف ، يناقش ويحاجج ، حتى يستمخض من ذلك كله مزاجاً جديداً فيه شخصية الأمة وعقيدتها وذوقها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين متحدّثاً عن موقف العرب من الفكر اليوناني : « في القديم رفض العرب فن القصة والملحمة لأنها نشأت وثنية في مظهرها وروحها ، ثم لم تستطع أن تتخلص من آثار هذه الوثنية بعد تنصرها ، ورفضوا الشعر لأنه يصدر عن مزاج مخالف للمزاج العربي في تذوق الموسيقا وفي خصائصها ، وذهبوا في الصنعة والتأنق مذهباً آخر يلائم ثراء لغتهم ، ورفضوا فن التصوير والنحت لمخالفته للإسلام ، واستمدوا منه في الزخرفة وفي العمارة ما يلائمهم ، وأضافوا إليه من عندهم ما أنشؤوا به فناً عربياً فذاً ، وتوسعوا في نقل النظريات الرياضية والعلوم المجردة والتطبيقية والتجريدية مما لا مجال فيه للارتباط بالعقائد الدينية والقيم الخلقية والسلوك الاجتماعي . . »(١) .

وإذا كانت هذه القيم الهجينة سبب الحاجز الذي قام بين الأدب العربي وأدب اليونان ، فإن هذا ـ على جلال شأنه عند أصحاب العقيدة ـ يطوي ـ كما تقول بنت الشاطئ ـ ملحظاً أبعد وأعمق «وهو أن الأمة الإسلامية أخذت ما أخذت من التراث العلميّ للأمم القديمة لأنها أرادت أن توسع من آفاق معرفتها ، وتخصب عقليتها ، لكنها تجافت عن الآداب كراهة أن تستعير وجداناً أجنبياً . . »(٢) .

(١) مقالات في الأدب واللغة :٢١ .

(٢) قيم جديدة للأدب العربي : ١٨٩ .

ولكن هذه الملاحظ وأمثالها كانت مغيبة عن واحد مثل يوسف الخال ومجموعة (مجلة شعر) وبعض نصراء الحداثة أو غير داخلة في حسبانهم عندما نعوا في بيان أصدروه تلك الانكماشية التي وقع فيها الشعراء العرب قديماً بالنسبة للأدب الإغريقي[١] .

ملابسات الاتصال بالثقافة الغربية :

إذا كانت المحاكمة الرشيدة هي الفيصل فيما كان يأخذ أدبنا القديم من الآداب الأخرى أو يدع ؛ فإن هذه المحاكمة شبه معدومة في الاتصال القائم اليوم بين الأدب العربي الحديث وأدب الغرب ؛ فمنذ مطلع ما يسمى زوراً بعصر النهضة ، التي يحلو لبعضهم أن يؤرخ لها بحملة نابليون على مصر سنة (١٧٩٨م) بدأ اتصال وثيق بالحضارة الغربية ، ومضى الأدب تغزوه يوماً بعد يوم أفكار وثقافات أجنبية لا حصر لها ، تتغلغل في نسيجه طاغية مؤثرة ، وتنتشر فيه انتشار النار في الهشيم . مضى يُصنع على عينيها ، ويتخلق تحت نِيْر سلطانها المعربد .

وقد هيأ لهذا التخلق الهجين مجموعة من العوامل والملابسات السياسية والحضارية ، والاجتماعية ، والنفسية ، مما يطول الحديث عنه ـ لو أردنا استقصاءه ـ طولاً يخرج بنا عن القصد ، ولكن أبرزها يتمثل فيما يأتي :

ـ تخلف العرب وتقدم الغرب ، مما أورث انبهاراً به ، ومحاكاة له على طريقة الضعيف والقوي التي تحدّث عنها ابن خلدون ، وأوجد في الأمة حالة من الاستلاب الحضاريّ ، سماها مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ (قابلية الاستعمار) .

ـ ما تعرضت له الأمة العربية والإسلامية من استعمار غربي عسكري مسلح ، أذاقها الفقر والذل ، وأشاع فيها القطيعة والفرقة ، ثم خرج بعد أن ترك نُظُمه وأفكاره في أيدي طائفة من أعوانه ـ أبناء جلدتنا ـ صنعهم على عينه ، فراحوا يكملون أهدافه ، ويصدرون عن هواه .

---

(١) من محاضرة عنوانها «مستقبل الشعر في لبنان» ضمن نشرة «محاضرات الندوة اللبنانية : ٥/٣٦٧ـ ٣٨٤» .

- الغزو الفكري الثقافي المنظم ، المدعوم بقوى لا حصر لها : خارجية وداخلية .

- ما تعرضت له الأمة - وما تزال - من هزائم متلاحقة ، على أصعدة مختلفة ، تفقدها الثقة بالذات ، وتشعرها بالصَّغار والانكسار ، وتجسد لها المنتصر الغربيّ مثلاً أرفع .

- توقف المد الإسلاميّ ، وانحسار دولة المسلمين من الوجود منذ سقوط الدولة العثمانية ، واشتداد القبضة الغربية على أعناق الشعوب ومقدراتها ، ولا سيما العربية والإسلامية منها .

- تشتت العرب والمسلمين وتشرذمهم ، وضعف حيلتهم عن التخطيط الواعي المدروس .

- زوال الحواجز بين الأمم ، وقوة الاتصال بينها ، ووفود الأفكار والثقافات من جميع النوافذ .

- ضمور الهوية الحضارية الذاتية ، والتهوين من شأنها ، وممارسة الغزو الفكري للتشكيك في جدواها .

- محاضرة الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية الأصيلة ، والتضييق على منابرهما الإعلامية .

في ظل ملابسات كهذه وغيرها مما لا يتسع المقام للوقوف عنده يتم لقاء الأدب العربي الحديث بالأدب الغربي ، ولك أن تتخيل شكل التعامل مع ثقافة تقدم إليك باستمرار على أنها النموذج الأسمى ، وأن أهلها قوم متميزون ، وأنها حضارة الرجل الفائق (السوبرمان) وإذا لم تقتنع بذلك اقتناعاً عقلياً فرضها عليك بقوة الحديد والنار صنّاعُها الأقوياء ، وطائفةٌ من بني جلدتك مّمن رضعوا لبان عشقهم ، فراحوا يقولون لك قولة الدكتور طه حسين : «علينا أن نسير سيرة الأورُبيّين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يُحَب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب ...

وأن نُشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوّم الأمور كما يقوّمها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها ...»[1] .

وإذا رحت تُمنع في مقابل ذلك من المباهرة بثقافتك ، ويُفرض عليك وعليها حصار إعلامي صفيق ، ثم كنت ـ زيادة على ما ذُكر ـ مهزوماً من الداخل والخارج ، لا يتلبَّسك شعور العزة والانتماء تلبُّساً حاراً ؛ لأن كل شيء من حولك يهز الثقة فيك : في دينك ، وتراثك ، ولغتك ، وحضارتك ، ويجبهك ليل نهار ـ على أيدي قوم لُسْن مصاقع ـ بأنك ذو ثقافة بدوية بائدة ، لا تصلح لعصر التقدم والعلم ، ولا تماشي روح العصر ؛ إذا تجمعت أمثال هذه الملابسات كان لك أن تتخيل أي ضرب من التعامل يتمّ؟

إنه لن يكون ـ في شكله الأعم ـ تعاملاً رشيداً مبصراً ، لأنه يفتقد النّدّيّة ، وتذهل فيه روح المحاكمة والاصطفاء .

ومهما يكن في النوافذ الغربية التي انفتحت على أدبنا الحديث من خير لا نجحده ، تمثل في إطلالته على ثقافات وخبرات جديدة ، وسَّعت آفاقه ، وأغزرت فنونه ، وأفادته تقانات فنية ومنهجية ، وأشكالاً تعبيرية لم يكن يعرفها ، فإن خسارته في ميدان الفكر ـ خاصة ـ كانت أفدح ؛ لقد راح يتغرب ، وتضيع ملامح وجهه الأصيلة يوماً بعد يوم .

إن الأدب العربي الحديث يصدر ـ منذ عهد ـ عن منابع غير أصيلة ، وهو يمثل في غالبيته العظمى ـ التي هي في موطن الشهرة والذيوع ـ روح الخضوع للغرب ، والتأثر به ، والإحساس بالتصاغر أمامه ، والوقوف منه موقف التلميذ من الأستاذ ، يحاكيه محاكاة العميان ،ويخبط وراءه خبط الأعشى الكليل .

يقول أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ : «إن كثيراً من الجامعيين في مصر رجعوا متشبعين بروح الغرب ، يتنفسون برئته ، ويفكرون بعقله ، ويرددون في

---

(١) انظر مستقبل الثقافة في مصر :٤١ ـ ٤٤ .

بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق ، وحماسة زائدة . . »[١] .

وتحدّث أحد الباحثين عن هجانة الأدب العربيّ الحديث فقال : أدبنا مستورد ، لا توجد لنا نظرية نقدية عربية يمكن أن نساهم بها في ركب التطور والحضارة ، نعم لأن الأدب الذي يكتبه أدباؤنا أدب مستورد ، ومقاييسه بالتالي مستوردة ...[٢]

وسيتضح من خلال عرضنا القادم للمذاهب الأدبية الغربية ما في هذه المذاهب من قيم هجينة تتجافى مع روح الإسلام ، ومع كثير من تصوراتنا الفكرية والفنية . ومع ذلك فقد سادت هذه المذاهب أدبنا العربي الحديث ، وراح كثير من الأدباء والنقاد يقلدونها ، ويغترفون من بحرها ، غير مميّزين فيها بين ما يصلح وما لا يصلح .

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية :١٣٠ .
(٢) جريدة الأخبار المصرية ، الصفحة الأدبية ، عدد (١٩٨١/٤/١) .

obeikandl.com